

إشكالية الهوية بين التوظيف الأيديولوجي والفهم العقلاني

أ. عبد الله زين

المركز الجامعي بالوادي

1- مفهوم الهوية:

يعتبر مفهوم الهوية من أبرز المفاهيم المحورية في الثقافة العربية المعاصرة، فقد شغلت اهتمام المفكرين والمتقنين في العالم العربي المعاصر، وربما يرجع ذلك إلى ما يعانيه عالما العربي الإسلامي من مخاطر تهدد وجوده، ولمواجهة الأخطار المحدقة به، وجب عليه التمسك بثوابته والتشبث بهويته، التي تشكل سدا منيعا أمام تلك المخاطر.

في هذا السياق نحاول أن نوضح مفهوم الهوية، وفي سبيل ذلك رجعنا إلى بعض المعاجم المتخصصة، وأبرزها: المعجم الفلسفي لـ: " جميل صليبا " ، الذي حاول توضيح معنى الهوية، إذ يذكر المؤلف: " أن اسم الهوية ليس عربيا في أصله، وإنما اضطر إليه بعض المترجمين، فاشتق هذا الاسم من حرف الرباط، أعني الذي يدل عند العرب على ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره، وهو حرف "هو" في قولهم: زيد هو حيوان أو إنسان" كما يذكر جميل صليبا في معجمه: " قال الفارابي: " هوية الشيء، وعينيته، وتشخصه، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له، كل واحد. وقولنا: أنه هو إشارة إلى هويته، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك"¹

يتضح إذن أن الهوية بحسب ما ذكر جميل صليبا في معجمه الفلسفي، تعني الثوابت والخصوصيات سواء تعلق الأمر بالأفراد أو الجماعات، والهوية المقصودة في هذا السياق هي هوية المجتمعات، ومنها المجتمع العربي الإسلامي . إذا كانت الهوية تعني ثوابت المجتمع (العربي الإسلامي)؛ فإن من أبرز ثوابت هذا الأخير، اللغة العربية والدين الإسلامي وغيرها من العناصر الأخرى، التي لا ينبغي التفريط فيها، وإن حصل ذلك فسيفقد المجتمع العربي الإسلامي وجوده ويندثر. من أبرز المفكرين الذين أدركوا أهمية تلك الثوابت رائد النهضة في الجزائر ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين العلامة " عبد الحميد

- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج02، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1982م، ص: 529-530.¹

ابن باديس" الذي يقول في دفاعه عن هوية الشعب الجزائري: " شعب الجزائر مسلم... وإلى العروبة ينتسب/ من قال حاد عن أصله...أو قال مات فقد كذب " .

وإذا أردنا أن نقدم دليلا واحدا يثبت ما للهوية من أهمية في الحفاظ على كيان المجتمع والأمة، ما حققه الشعب الجزائري من بطولات في مقاومة المستعمر الفرنسي، فالثورة التحريرية ضد هذا الاستعمار قامت تحت شعار: " الله أكبر...تحيا الجزائر"، فما كان للشعب الجزائري أن يحقق استقلاله لو أنه فرط في هويته وثوابته، فهاته الأخيرة تمثل صمام الأمان للشعب في الحفاظ على كيانه ووجوده .

2- مفهوم الأيديولوجيا:

يعتبر لفظ "أيديولوجيا" من الألفاظ التي يصعب تحديد معناه بدقة؛ إذ يؤكد المفكر والباحث "عبد الله العروي" في كتابه (مفهوم الأيديولوجيا)، « أن هذا المفهوم ليس مفهوما عاديا يعبر عن واقع ملموس، فيوصف وصفا شافيا، وليس مفهوما متولدا عن بديهيات فيحد حدا مجردا. وإنما هو مفهوم اجتماعي تاريخي، وبالتالي يحمل في ذاته آثار تطورات وصراعات ومناظرات اجتماعية وسياسية عديدة. " إنه يمثل تراكم معانٍ "، مثله في هذا مثل مفاهيم محورية أخرى كالدولة أو الحرية أو الإنسان...»²

ومع ذلك نحاول أن نحدد مفهوم أيديولوجيا، وذلك بالاستناد إلى بعض المعاجم وخاصة الفلسفية منها، إذ يعرفها مجمع اللغة العربية في معجمه الفلسفي - تحت إشراف د/ إبراهيم مذكور - فيعطيهما ثلاثة معانٍ:

أيديولوجيا هي علم الأيديولوجيا (علم الأفكار)، وموضوعه دراسة الأفكار والمعاني، وخصائصها، وقوانينها، والعلامات التي تعبر عنها، والبحث عن أصولها بوجه خاص، كما صورته "دوستوت دو تراسي" (destutt de tracy) .

تطلق على التحليل والمناقشة لأفكار مجردة لا تطابق الواقع.

ج- عند ماركس، جملة الآراء والمعتقدات الشائعة في مجتمع ما، دون اعتداد بالواقع الاقتصادي³.

² - عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط8، سنة 2012، ص: 06,05.

³ - إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط4، 1983، ص: 29.

إضافة إلى المعجم الفلسفي السالف الذكر، نجد موسوعة لالاند الفلسفية، والتي حدد فيها "اندرية لالاند" مفهوم الأيديولوجيا، فوضع أربعة معان لها « فكرية (إيديولوجيا، أدلوجة)»، هي:

أ- كلمة إبتكرها " دستوت دوتراسي" (Destutt de Tracy)، ضمن كتابه (مذكرة حول ملكة التفكير)، علم موضوعه دراسة الأفكار (بالمعنى العام لظواهر الوعي)، ومزاياها وقوانينها وعلاقتها مع العلامات التي تمثلها وبالأخص أصلها.

بالمعنى المبندل، تحليل أو نقاش فارغان لأفكار مجردة، لا تتطابق مع وقائع حقيقية .

ج- مذهب يلهم أو يبدو أنه يلهم حكومة أو حزبا.

د- فكر نظري يعتقد أنه يتطور تطورا تدريجيا في غمار معطياته الخاصة به، لكنه في الواقع تعبير عن وقائع اجتماعية، ولاسيما عن وقائع اقتصادية (...) فهذا المعنى شديد التداول في الماركسية⁴.

ونبقى في سياق تحديد معنى الأيديولوجيا، فقد تناوله " هنري د. أيكين " ضمن كتابه (عصر الأيديولوجية). تجدر الإشارة إلى أن مترجم الكتاب المذكور أعلاه قد أكد غموض المصطلح واتساع دلالاته، فيقول : « يكفي أن يتصفح القارئ الفصل الأول من هذا الكتاب، ليدرك اتساع معاني هذا اللفظ وتشعبها إلى الحد الذي يستحيل معه التعبير عنه بلفظ واحد كهذا، لا يتناول إلا معنى واحدا من المعاني المقصودة، وهو معنى " الاعتقاد " وهو معنى ليس وحده المميز للفظ »⁵. وفي سبيل توضيح معنى الأيديولوجيا وإزالة اللبس حول هذا اللفظ، استعان بالشرح الذي قدمه " كارل مانهايم "

(mannheim karl) في كتابه (الأيديولوجية والمدينة الفاضلة) " ideology and utopia "، إذ يقول مترجم الكتاب: « ولعل أفضل شرح للفظ الأيديولوجية هو الذي أتى به " مانهايم " karl mannheim في كتابه " الأيديولوجية والمدينة الفاضلة " (ideology and utopia) والذي يلخص في أن اللفظ يطلق بمعنيين: أحدهما مذموم والآخر مقبول. فالمعنى المذموم تكون الأيديولوجية فيه هي آراء الخصم الظاهرية، التي تخفي الطبيعة الحقيقية لموقفه، والتي ليس من صالح ذلك الخصم الكشف عنها. وبالمعنى المقبول يقال أن

⁴ - اندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، باريس-بيروت، ط2، 2001، ص: 612,611.

⁵ - هنري د. أيكين، عصر الأيديولوجية، ترجمة فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ط 1، سنة 2010، ص: 05.

أيدولوجية عصر أو طبقة ما هي إلا خصائص الذهن وتركيبه في ذلك العصر أو تلك الطبقة»⁶.

يتضح من خلال استعراض معاني الأيدولوجيا، التي وردت في المعجمين السالفي الذكر، أن هذا اللفظ معقد ومتعدد الدلالات؛ إذ يختلف معناه من سياق إلى آخر، وهذا ما أكده الباحث المغربي "عبد الله العروي" في كتابه (مفهوم الأيدولوجيا)، والذي يرى أن كل نقاش حول مفهوم الأيدولوجيا يستلزم الاطلاع على أصله وصيرورته، وبالتالي على المذاهب الفلسفية المتعلقة به .

كما يرى "العروي" أن كلمة (إيدولوجيا) دخيلة على جميع اللغات الحية، تعني لغويا، في أصلها الفرنسي، علم الأفكار، لكنها لم تحتفظ بالمعنى اللغوي، إذ استعارها الألمان وضمنوها معنى آخر، وبالتالي من الطبيعي أن يجد الكتاب العرب صعوبة في ترجمتها بصورة مرضية. إن العبارات التي تقابلها: منظومة فكرية، عقيدة، ذهنية... الخ، إلا أنها تشير فقط إلى معنى واحد من معانيها .

اهتم "عبد الله العروي" بتحديد الكثير من المفاهيم، وأفرد لها كتابا، ومن هاته المفاهيم (الأيدولوجيا)

وقد عربها إلى كلمة (أدلوجة)، ويقول في هذا الصدد: « أقترح أن نعربها (كلمة أيدولوجيا) تماما وندخلها في قالب من قوالب الصرف العربي، وسأعطي المثل، فأستعمل فيما يلي كلمة (أدلوجة) على وزن أفعولة وأصرفها حسب قواعد اللغة العربية »⁷.

وفي إطار توضيح معنى (الأدلوجة) يعطي "العروي" مثالا توضيحيا من الحياة السياسية، التي لا تنفصل عن الأيدولوجيا، فعندما نقول-حسب رأيه- إن الحزب الفلاني يحمل (أدلوجة)، فهي تعني مجموع القيم و الأخلاق والأهداف التي ينوي تحقيقها على المدى القريب أو البعيد. فعندما نقول أدلوجة عصر النهضة؛ فإننا نعني بها النظرة التي كان يلقيها رجل النهضة إلى الكون والمجتمع والفرد، والتي يندرج تحت قواعدها العامة كل تقرير أو

⁶ - هنري د. أيكين، المرجع نفسه، ص: 05,06.

⁷ - عبد الله العروي، مفهوم الأيدولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط8، سنة 2012، ص: 09.

حكم صدر في ذلك العصر. أدلوجة عصر من العصور هي إذن الأفق الذهني الذي كان يحد فكر إنسان ذلك العصر⁸.

كما عرض "العروي" التصور الماركسي للأيديولوجيا، اذ يرى أن الماركسية تميزت عن غيرها بتقديم نظرية عن الأيديولوجيا (نسميها فيما يلي أدلوجياء). إنها تجيب على السؤال التالي: ما هي الأسباب التي جعلت الفكر الإنساني في كل أدواره يرى الأشياء طبقا لدعواه هو، لا طبقا لذات الأشياء ؟ في هذا الاستعمال يقابل مفهوم الأدلوجة مفهوم الحق: الحق هو ما يطابق ذات الكون، والأدلوجة ما يطابق ذات الإنسان في الكون .

نقول إن فلانا ينظر إلى الأشياء نظرة أدلوجية؛ نعني بذلك أنه يتخير الأشياء ويؤول الوقائع بكيفية تظهرها دائما لما يعتقد أنه الحق. يتعارض الفكر الأدلوجي مع الفكر الموضوعي الذي يخضع للمحيط الخارجي فيتشبع بقوانينه.

يرى "عبد الله العروي" أن للأيديولوجيا استعمالات متعددة؛ اذا تستعمل في المجال السياسي والمجال الاجتماعي ومجال المحيط الطبيعي، لكن هنالك مجال رابع مشترك بين المجالات السابقة، عندما ندرس تأثير أية أدلوجة على الفكر فإننا نبحث في الحدود الموضوعية التي ترسم أفق ذلك الفكر. الحدود من أنواع ثلاثة: حدود الانتماء إلى أدلوجة سياسية، وحدود الدور التاريخي الذي يمر به المجتمع ككل، وحدود الإنسان في محيطه الطبيعي .

نستطيع أن نستنتج من هذا العرض التمهيدي- فيما يقول "العروي"- أن مفهوم الأدلوجة دائما مزدوج؛ فهو في نفس الوقت وصفي ونقدي، يستلزم دائما مستويين: المستوى الذي تقف عنده الأدلوجة حيث تظن أنها حقيقة مطابقة للواقع، وهو المستوى الذي يقف عنده الباحث لوصف تلك الأدلوجة بوفاء وأمانة، والمستوى الثاني هو الذي يقف عنده الباحث عندما يحكم على الأدلوجة أنها أدلوجة لا تعكس الواقع على وجهه الصحيح .

إن الظاهرة النقدية هي التي تميز مفهوم الأدلوجة عن المفاهيم الأخرى، مثل: فكر، ذهنية، عقيدة، دين، فلسفة.... فلا يجب طمسها أو عدم الوعي بها، وإلا أصبحت كلمة أدلوجة كلمة فارغة غير ضرورية (...).

⁸ -انظر، عبد الله العروي، المرجع السابق، ص: 10.

كما يرى "العروي" أن استعمالات الأدلوجة ترتبط بمجالات وعلل ووظائف؛ إذ لكل استعمال من هاته الاستعمالات مجال وعلّة ووظيفة، وبالتالي يقود حتماً إلى نظرية ويخلق نوعاً من التفكير، كما هو مبين في الجدول الآتي:

أدلوجة	التفكير	المضمون	الوظيفة	المرجع	المجال	النظرية
قناع	وهمي	المجتمع	الإنجاز	المصلحة	المناظرة	النسبية
رؤية كونية	نسبي	الكون	الإدراك	التاريخ	اجتماعات الثقافة	التاريخية
معرفة	آني	الحق	تظاهرة الكون	الجدل	نظرية المعرفة والكائن	الجدلية

كما يرى "العروي" أن غالبية المستعملين اليوم ينسون أو يتناسون هذه الارتباطات المنطقية، لكنهم لا يستطيعون محوها من تفكيرهم، فتؤثر في تحليلاتهم، وتحدد اختياراتهم وتقترض عليهم مناهجهم رغماً عنهم .

وبخلص "صاحب كتاب مفهوم الأيديولوجيا" في آخر الفصل المتعلق بتحديد مفهوم الأيديولوجيا، إلى أن الهدف من هذا البحث هو التوصل إلى قاعدة لاستعمال مفهوم الأدلوجة بكيفية مرضية، كما أكد أنه على الذي يستعمل هذا المفهوم أن يوافق بين المعنى المستعمل والمجال الذي يتحرك فيه، كي لا يتيه في تساؤلات عقيمة واعتراضات لا محل لها ⁹.

* مفهوم القراءة الأيديولوجية:

قبل تحديد معنى القراءة الأيديولوجية، نحاول أن نتناول الأيديولوجيا من الناحية التاريخية؛ وهذا ما عالجه الباحث "عبد الله العروي" في كتابه (مفهوم الأيديولوجيا)، فقد ميز هذا الباحث بين عصرين هما: عصر ما قبل الأدلوجة وعصر الأدلوجة؛ ومعنى ذلك أن ظهور

⁹ - انظر، عبد الله العروي، المرجع السابق، ص: 12، 13، 14، 15.

الأدلوجة لم يرتبط بالفكر البشري منذ أقدم العصور، وإنما برز في حقبة ما وبفعل عوامل معينة، ويقصد "العروي" بهذه الحقبة القرن الثامن عشر، إذ يقول: «كما لا يصح لنا أن نعزو المفهوم (الأدلوجة) إلى عصور سابقة للقرن الثامن عشر الغربي. قد نجد بالطبع ملاحظات تؤلف نظرية شبيهة بنظرية الأدلوجة، لكن النظرية التي نستخرجها من آراء متفرقة هي من صنعنا نحن بعد أن تشبعنا بالفكر النقدي. إن الفكر السابق للقرن الثامن عشر لم يبدع مفهوم الأدلوجة لأنه لم يكن في حاجة إليه. نلجأ اليوم إلى المفهوم المذكور لدراسة ذلك الفكر، لكن لا يحق لنا أن نقرأه فيه»¹⁰.

يتضح إذن أن "العروي" يربط ظهور مفهوم الأدلوجة أو الأيديولوجيا بالقرن الثامن عشر الغربي؛ أي في الغرب الأوروبي، وذلك لأنه عصر التنوير الذي اشتهر بالفكر النقدي، وبالتالي يبدو أن هناك ارتباطاً بين الأدلوجة والفكر النقدي. يقول "العروي": «إن مفهوم الأدلوجة نشأ في ظروف معينة. كلما استعملناه اليوم عن قصد أحيينا بالمصاحبة تلك الظروف. لذا، لا بد من الفصل بين عصر ما قبل الأدلوجة وعصر الأدلوجة»¹¹.

* مفهوم التوظيف الأيديولوجي:

توظيف الشيء بصفة عامة هو استعماله واستخدامه؛ فنقول عن الموظفين في القطاع العام في الدولة "مستخدمين" أي الأفراد الذين تستخدمهم الدولة في مختلف قطاعاتها. وعندما نتحدث عن التوظيف الأيديولوجي لشيء ما، نعني بذلك استخدام هذا الشيء واستعماله بالاستناد إلى أيديولوجيا معينة، واتخاذها أداة لخدمة تلك الأيديولوجيا.

من أبرز القضايا التي خضعت للأيديولوجيا وتم توظيفها أيديولوجيا، مسألة الهوية. والنزعة التي تقوم بذلك تسمى بالنزعة الأيديولوجية؛ وهي المنسوبة إلى الأيديولوجيا، ونعني بالنزعة الأيديولوجية في علاقتها بالهوية ذلك الاتجاه الفكري الذي يتعاطى مع قضايا الهوية بشكل غير موضوعي، أي يتعاطى معها تحت تأثير أيديولوجيات معينة، معتمداً في ذلك على الانتقائية في التعامل مع قضايا الهوية؛ فما يخدم أيديولوجيته ومصالحه يأخذه وما لا يخدمه من الثوابت يتركه. ومن أمثلة ذلك في التعاطي مع قضايا التراث (الفكر الخلدوني)، نجد النزعة الأيديولوجية التي يمثلها بعض المفكرين مثل " طه حسين" صاحب التلقي

¹⁰ - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص: 19.

¹¹ - عبد الله العروي، المرجع نفسه، ص: 19.

الاستبعادي، و" الطيب تيزيني" ممثل التلقي الماركسي، و " ساطع الحصري" رائد التلقي القومي .

3- أثر الأيديولوجيا في الهوية :

يبدو أن حديث الهوية يشغل من الناس، في مناطق مختلفة من المعمور، مكانا محوريا إن لم نقل إنها مكانة الصدارة. ذلك أن هنالك نوعا من العودة إلى خطاب الهوية على النحو الذي يكون الشأن فيه كذلك في كل مراحل الأزمة وفترات التحول التي تتميز بحدوث رجاءات عنيفة. ذلك هو الشأن في العديد من الدول التي كانت، إلى وقت قريب، تشكل بعضا من الاتحاد السوفياتي المتصدع، وذلك هو الأمر في فرنسا وفي ألمانيا وهولندا، والسؤال المتعلق بالهوية لا يزال الآن يطرح في عالمنا العربي الإسلامي. هذا الذي نقول عنه إنه «الانتفاضة» أو «الربيع العربي»، في جوانب عديدة منه ليس سوى إثارة لقضية الهوية وليس سوى تعبير عن أنواع من القلق والخوف عليها. يمكن القول، إجمالا، إن حديث الهوية يطفو على السطح ويعاود الظهور في كل الأحوال التي تستشعر الهوية خطرا أو جملة أخطار تحف بها أو تقدر أن هنالك ما يتهدها بالزوال والاندثار. ولا شك أن أشد ما ترى فيه الهوية تهديدا لها هو ذلك النزوع نحو التوظيف الأيديولوجي لها؛ إذ عانت الهوية ولازالت تعاني من اتخاذها مطية في أيدي بعض الأطراف لتمرير مصالحها الخاصة على حساب المصلحة العامة، فمن الأطراف ما تجري وراء مصالحها الخاصة تحت غطاء الوطنية، ومن أمثلة ذلك الانظمة الشمولية التي تكبح الحريات وتمنع المعارضات باسم وحدة الوطن، كما من المسلمين المتشددین من يسعى إلى النفوذ والسيطرة تحت شعار " الدين" فباسمه انتهكت حرمان المسلمين، وخير مثال على ذلك ما يحدث اليوم في كل من سوريا والعراق (داعش وايران التي تسعى إلى تحقيق مشروع الخليج الفارسي بل البدر الشيعي في منطقة الشرق الأوسط إلى غير ذلك من الأمثلة .

لست أبتغي، مما سبق، أن أخوض في إشكالات نظرية ولست أريد الغوص في إشكالات نظرية محضة، ولكني أرى القول السابق توطئة ضرورية لطرح السؤال المؤرق التالي: ما الشأن بالنسبة للهوية العربية اليوم؟ ما الشأن فيها من حيث أن دعاوى النموذج الأوحده تتهددها نوعا من التهديد؟ يجب الانتباه إلى أن ما نقول عنه إنه الهوية العربية يخضع، من جهات المنطق والتاريخ والوجود لما يصح القول عنه إنه تحديد بالإيجاب، مثلما

أنها تخضع، بموجب المنطق والتاريخ والوجود كذلك لما يصح نعته بالتحديد بالسلب. فأما التحديد بالإيجاب فهو حد موضوع ما من جهة مكوناته الذاتية. وبالنسبة لقضية الهوية العربية فإن هذه الأخيرة تحد من جهة اشتغالها على العربية لغة وثقافة تضرب في التاريخ بعيدة فهي تحت نموذجاً ثقافياً عربياً يستمد جذوره مما قبل الإسلام، ومن انتمائها للإسلام حضارة وليس ديناً فحسب، فالانتماء للحضارة العربية الإسلامية مما لا يملك العربي المسيحي أن ينفك عنه ومما يقوله ويردده دوماً حكماء العرب من الذين يدينون بغير الدين الإسلامي، بل ربما كان من المفكرين العرب المسيحيين تأكيد على هذه الصفة الأخيرة على نحو لا نجده عند المفكرين العرب المسلمين.

فالهوية العربية هي التي تعبر عن الشعور بالاشتراك في المكونات الواحدة دون أن يكون الكل منتسباً إلى نفس الرقعة الجغرافية. إنها، على سبيل المثال ما كان يجعل الإنسان في الأندلس يشعر بقوة الرابطة التي تشده إلى الشعر والحكمة العربيين والحال أن مسافات هائلة تبعده عن الجزيرة العربية، والحال أنه يحيا في أجواء تختلف من حيث المناخ والمعطيات المحلية المباشرة عن الجزيرة. وهي، بالمقابل ما يجعل في وجدان الإنسان العربي، حتى يومنا هذا، انفعالا عجبيا بالأدب الأندلسي وبأجواء ابن الخطيب وابن زيدون وابن هاني، وهي ما يجعل في عقل ووجدان المثقفين العرب مكانة تكاد تكون متميزة للشاطبي وابن رشد واعتزازا وفخرا بابن زهر والعباس بن فرناس وأضرابهم من الأسماء التي تعتبر عند العربي اليوم رموزاً وعلامات تدل على الهوية العربية. وأما التحديد بالسلب فهو، كما يقول المناطقية وعلماء اللغة معاً، هو حد (=تعريف) الشيء بما ليس هو: الكتاب غير الطاولة، غير الشجرة، غير الملحقة.. تقول الهوية، متى تخيلنا أنها تتحدث عن نفسها: إنني كذا وكذا، ولست ذا ولست كذا. وحيث إن مواطن الإيجاب محدودة معدودة، في حين أن مجالات السلب تكاد تكون غير متناهية فإن التحديد بالسلب يكون، ضرورة، هو الحاسم في عملية التعريف.

كل ما في الكون يخضع، وجوباً لتأثير التاريخ ولا يسلم من فعل الزمن. والكون كله تحول وتبدل، فأنت لا تستحم في ماء النهر مرتين ما دام الماء يتدفق باستمرار وإلا ما كان النهر نهراً، تلك سنة الله في خلقه « ولن تجد لسنة الله تبديلاً ». تدعي الهوية أنها استقرار وثبات وارتفاع فوق الزمان والتاريخ معاً وإفلات من فعل كل منهما، وهذا حسب ما تقتضيه

طبائع الأمور وتستوجبه سنة الكون إدعاء كاذبا، بل إنه محض هراء. في معترك التبديل والتغير الدائنين تصير الهوية وتتحول، فهي ليست تملك أن تخرج عن هذه الأحوال.

هل يعني هذا القول أن الهوية تصير إلى وهم، أو أنها مجرد وهم أو حلم كاذب؟ هل يعني هذا القول أيضا إن الهوية العربي ليست سوى ما نتوهم أنه كذلك؟

سخف وهراء أن يعتقد المرء شيئا مماثلا. والسؤال ينبغي أن يكون بالأحرى هو التالي: لماذا تمكنت الهوية العربية من الاستمرار والوجود كل هذه القرون العديدة؟ لماذا يزداد الوعي بالتمايز العربي قوة وانتشارا مع محاولات كثيرة للمسح والإبادة؟

يكنم الجواب عندي في السمة الأساسية التي لا تزال تلازم الهوية العربية دون وعي كبير من حملة هذه الهوية والمتحدثين عنها من حيث أنها ترجمان وجودهم والمعبر عن أحلامهم وآلامهم معا. السمة الأساسية هي أن الهوية العربية استطاعت دوما أن تقاوم نزعات الانكفاء على الذات والتصادم مع العالم من حولها بالقدر الذي نجحت فيه أن تقاوم محاولات الإبادة والمسح. لا، بل الحق أنها أفلحت في المقاومة لأنها، تحديدا، عرفت كيف تحافظ على انفتاحها على «الغير»، كما يقول العرب القدماء، أو على الآخر كما نقول في لغتنا اليوم.

الحياة انفتاح لا انغلاق، والحضارات العظمى كانت كذلك لأنها كانت حضارات انفتاح وإقبال لا انغلاق وإدبار. والحضارة العربية الإسلامية سمتها الأساسية (كما قلنا ذلك من هذا المنبر أكثر من مرة واحدة) قبول المغايرة والاختلاف - وليس يكون ذلك إلا من ثقافة تصدر عن هوية حضارية سمتها الانفتاح، فهي مشروع منفتح.

هل نملك اليوم الحفاظ على صفة الانفتاح أم أننا نرتمي في أحضان الانكفاء على الذات ومن التكرار لسنة الكون فيعضنا الدهر بنابه؟ أما الجواب عن هذا السؤال العسير فهو في يدنا لا بيد غيرنا¹².

¹² -الهوية والعولمة والأيديولوجيا، جريدة الشرق الأوسط، العدد 12217، 10 مايو 2012.